سلسلة

فوائد من تفسير القرآن العظيم

[سورة القصص]

مستقاة من كتاب (تفسير القرآن الكريم)

للشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين

ط / مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

جمع واختيار

منى الشمري

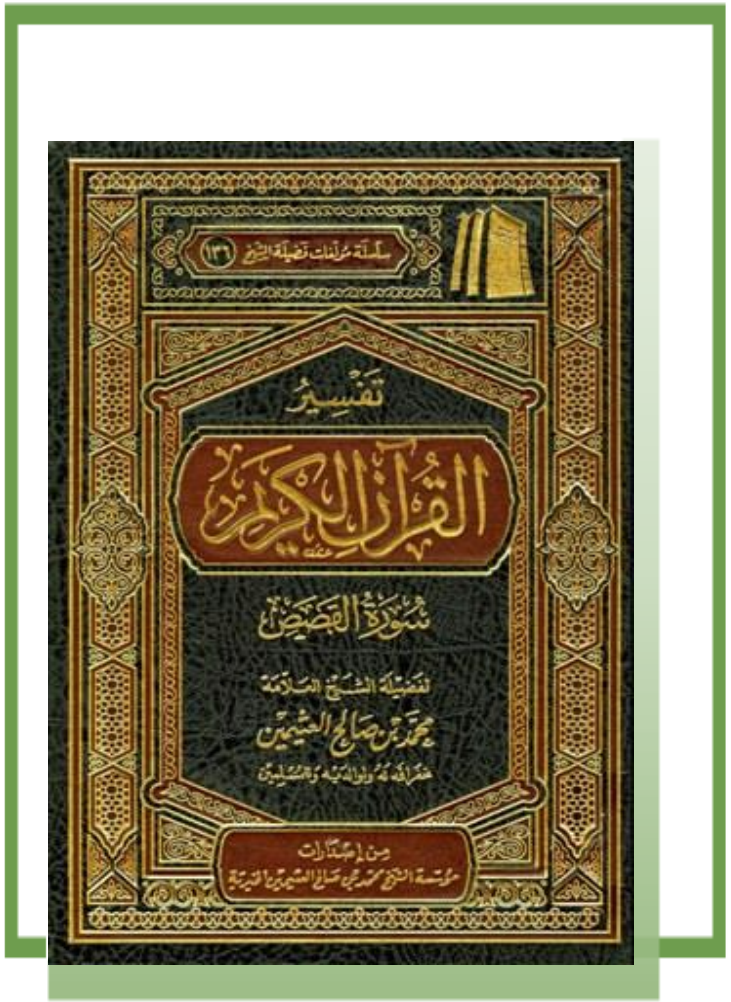

١

{طسم (١) تلك آيات الكتاب المبين (٢) نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون} القصص :١-٣

هذا القرآن مكتوب؛ لقوله تعالى: {الكتاب}، ونحن نعلم أن كتابة القرآن متحققة في ثلاثة أماكن:

١ - في اللوح المحفوظ.

٢ - في صحف الملائكة.

٣ - في المصاحف التي بين أيدينا.

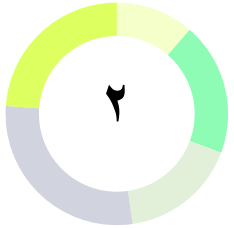

{طسم (١) تلك آيات الكتاب المبين (٢) نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون} القصص :١-٣

القرآن والسنة يحلان كل ما يعرض لنا من مشكلات في أمور ديننا ، أو دنيانا ،
ولكن المشكلة هي القصور في فهم النص لدى بعض الناس،
ويرجع الأمر إلى سببين:
إما هوى متبع، وإما جهل.

فوائد مستنبطة من تفسير سورة القصص

{طسم (١) تلك آيات الكتاب المبين (٢) نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون} القصص :١-٣

الرجوع إلى الكتاب والسنة تفيد الإنسان -حقيقة- فائدتين عظيمتين:

الأولى: الطمأنينة والاستقرار؛ لأن اتباع كلام أهل العلم -وإن كان الإنسان قد يطمئن إليه بعض الشيء- ما تكون الطمأنينة إليه كطمأنينته إلى ما دل عليه الكتاب والسنة.

الثانية: أنه يستطيع أن يقنع غيره، ويطمئن غيره.

فمثلا إذا قلت لإنسان ما: هذا حرام. يقول لك: ما الدليل على الحرمة؟ فإذا قلت: له حرمه الله، أو حرمه رسوله. اطمأن لقولك، أما إذا قلت له: هناك كتاب ما قد حرمه. قال لك مستنكرا: أي كتاب هذا؟ هل هو موحى به من عند الله؟

إذن: الرجوع إلى الكتاب والسنة يبث الطمأنينة في قلوب المخاطبين ويقنعهم.

{طسم (١) تلك آيات الكتاب المبين (٢) نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون} القصص :١-٣

أن ما أخبر الله به هو الحق، فجميع ما أخبر الله به عن هذه القصص هو حق، وإن الحق إذا وصف به الخبر، فهو بمعنى الصدق، وإذا وصف به الحكم، فهو بمعنى العدل.

وهذه القصص سبب لحدوث الإيمان، وكذلك سبب لزيادته أيضا، أي سبب لمن لم يؤمن حتى يؤمن، ولمن آمن حتى يزداد إيمانه؛ ثباتا وكمية.

والدليل على أنه ينتفع بها غير المؤمن قوله تعالى: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب} [يوسف: ١١١]، فكل إنسان عنده لب -أي عقل- فلا بد له أن يعتبر وينتفع.

{إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم} القصص :٤

أن تفريق الأمة سبب لفشلها وذلها ، وذلك في قوله تعالى: {وجعل أهلها شيعا}،
ومنها نعلم أن الحكمة الإنجليزية المشهورة (فرق تسد) أصلها فرعوني؛
لأن فرعون هو أول من جعل أهل الأرض شيعا؛ حتى يسود عليهم.

فوائد مستنبطة من تفسير سورة القصص

{إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين} القصص :٤

أن العلو في الأرض، والعتو على الخلق، والسعي بينهم بالتفريق يعد من الإفساد، وذلك من قوله تعالى: {إنه كان من المفسدين}.

ويتضح من الآية أنه من كان على نقيض ذلك من التواضع للحق والخلق، جمع شمل الأمة، وقصر عدوانه عنها، يكون من المصلحين، وكما قيل: وبضدها تتميز الأشياء.

المرجع/ كتاب تفسير القرآن الكريم - محمد بن صالح العثيمين ط/ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية - تفسير سورة القصص ص١٣

فوائد مستنبطة من تفسير سورة القصص

{ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين} القصص :٥

تمام قدرة الله عز وجل؛ وذلك عندما جعل هؤلاء المستضعفين أئمة، ووارثين لهؤلاء الطغاة، وذلك بإرادة من الله وحده، وليس بقدرتهم، فالمسلمون -مثلا- ورثوا ديار الفرس والروم بفعلهم وجهادهم، وإرادة الله.

ولكن بني إسرائيل ورثوا فرعون بلا قتال، ولا فعل منهم، بل كان ذلك بإرادة الله المحضة فقط، وهذا من قوله تعالى: {ونجعلهم الوارثين}، فالله ييسر لعباده من النصر ما لم يكن في مقدورهم، ولا في حسابهم

المرجع/ كتاب تفسير القرآن الكريم - محمد بن صالح العثيمين ط/ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية - تفسير سورة القصص ص١٧

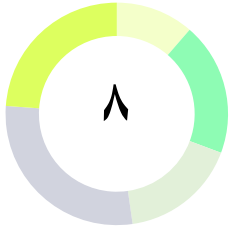

{ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين} القصص :٥

أن من استضعف لقيامه بالحق فلا بد أن تكون العاقبة له؛ لأن قوله: {ونريد أن نمن على الذين استضعفوا}، وإن كانت في سياق بني إسرائيل، فغيرهم داخل في العموم اللفظي، إذا قلنا {على الذين استضعفوا} في أي مكان وزمان، أو العموم المعنوي، وذلك بقياس غيرهم عليهم؛ لأن دلالات العموم إما لفظية، أو معنوية، فالقياس الصحيح دلالة اللفظ على المقيس دلالة معنوية، فحينئذ نقول: {على الذين استضعفوا في الأرض} إذا جعلناهم هم بني إسرائيل فقط، فالمستضعفون بقيامهم بالحق من غيرهم مثلهم؛ لأن الله تعالى يقول: {سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا} [الفتح: ٢٣].

فسنة الله للخلق واحدة؛ لأنه سبحانه وتعالى ليس بينه وبين أحد نسب، أو حسب حتى يراعيه، يقول تعالى: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} [الحجرات: ١٣].

{ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين} القصص :٥

بيان فضائل بني إسرائيل، ومناقب بني إسرائيل؛ لقوله: {ونجعلهم أئمة}.

وهنا قد يشكل على الإنسان أن الله تعالى يقول ذلك، وفي آيات كثيرة يذم بني إسرائيل، ولكن الله سبحانه وتعالى بين السبب في جعل هؤلاء أئمة، فقال تعالى في سورة السجدة: {وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون} [السجدة: ٢٤]، فحينما كانوا متصفين بهذين الوصفين: الصبر واليقين، كانوا أئمة، وقد أخذ شيخ الإسلام من هذه الآية جملة، فقال: "بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين".

لكن لما تخلف الصبر، وتخلف اليقين منهم، صاروا {قردة خاسئين} [البقرة: ٦٥]، وجاءت الآيات في ذمهم، فالآيات لا يكذب بعضها بعضا، ولكن هناك أشياء توجب تخلف أحكام بعض الآيات لتخلف السبب.

{ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون} القصص :٦

التمكين في الأرض ليس معناه أن الإنسان يحكم الناس؛ ليكون سلطانا عليهم، لا ،
بل قد يكون التمكين للإنسان في الأرض بتمكين قوله؛ حتى يكون له سلطان على المؤمنين.

ولنأخذ شيخ الإسلام ابن تيمية مثلا ، فقد مكن الله له في الأرض أعظم من تمكين الولاة أنفسهم،
فتمكين الولاة قد انقضى بموتهم، أما ابن تيمية رحمه الله
فقد مكن الله له بأن جعل قوله معتبرا بين الناس، وما زالت أقواله باقية حتى الآن

المرجع/ كتاب تفسير القرآن الكريم - محمد بن صالح العثيمين ط/ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية - تفسير سورة القصص ص٢١

{وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم
ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين} القصص :٧

قول اللّه تبارك وتعالى: {وأوحينا إلى أم موسى} فيه دليل على إكرام اللّه سبحانه وتعالى لأم موسى، وهذا الإكرام يفهم من عدة أوجه حقيقة، يفهم من الوحي والإلهام، ومن تطمينها في قوله: {ولا تخافي ولا تحزني}، ومن بشارتها بأنه سيرد إليها، ويجعله اللّه من المرسلين.

وفيها بيان عناية اللّه تعالى بموسى.

فوائد مستنبطة من تفسير سورة القصص

{وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم
ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين} القصص :٧

بيان قدرة اللّه عز وجل في هذا الولد الصغير، الذي ألقي في اليم المهلك،
ولا حافظ له إلا اللّه سبحانه وتعالى،
كيف صار في آخر أمره من الرسل.

{فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين} القصص :٨

بيان قدرة اللّٰه سبحانه وتعالى في هذا الطفل الصغير من بني إسرائيل، الذين كانوا يقتل أبناؤهم، أراد اللّٰه بقدرته أن الذي يؤويه ويربيه في بيته هو فرعون نفسه، الذي أمر بالبحث عن الأولاد من بني إسرائيل ليقتلهم.

فكأن اللّٰه تعالى يقول له: أنت تقتل الأولاد من بني إسرائيل، وقد أرسلت لك واحدا منهم، فعاش في حجرك.

وهذا من أكبر الأدلة على قدرة اللّٰه عز وجل، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يعتمد على الأسباب المادية، فإن اللّٰه تعالى يغير الأحوال.

{فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين} القصص :٨

بيان أن فرعون وهامان وجنودهما كانوا على باطل؛ لقوله:
{إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين}،
وفرق بين الخاطئ والمخطئ، فالخاطئ: الذي يرتكب المعصية عن عمد،
والمخطئ: الذي يرتكبها عن غير عمد، أو عن جهل.

المرجع/ كتاب تفسير القرآن الكريم - محمد بن صالح العثيمين ط/ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية - تفسير سورة القصص ص٣٦

{وقالت امرأت فرعون قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون} القصص :٩

بيان فضيلة امرأة فرعون من قولها: {لا تقتلوه}، وفيها أيضا دليل على فراستها؛ لأنها توقعت أن ينفعهم، ولكن حدث بعض ما توقعته، فقد نفعها هي فقط، وضر فرعون.

وفيها دليل على ما قيل: (إن البلاء موكل بالمنطق)، والتفاؤل كلام؛ فامرأة فرعون قالت: {قرت عين لي ولك}، فتفاءلت به خيرا، فحصل لها ذلك، وصار قرة عين.

{وقالت امرأت فرعون قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون} القصص :٩

هذه الآية ليست دليلا على جواز التبني، فقوله تعالى: {أو نتخذه ولدا} يحتمل أن يكون معناه: نكرمه ونجعله في بيتنا مثل الولد، وقوله: {عسى أن ينفعنا} أي: مثل الخادم، ويحتمل أن يكون قوله: {نتخذه ولدا} معناه: نتبناه.

وعلى هذا المعنى، فلا دليل على جواز التبني، فالتبني كان مشروعا حتى في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-، في بداية الدعوة، ثم نسخ وحرم.

{وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين} القصص :١٠

أن الإنسان يكون على حال، فإذا نزل به البلاء تغير حاله، فهذه أم موسى كانت في البداية مطمئنة، ولذلك وضعته في التابوت، ثم وضعته في اليم، وهذا يدل على أعلى درجات الطمأنينة، ولكنها أصبحت بعدما فارقته كما قال تعالى: {وأصبح فؤاد أم موسى فارغا}، فقد صار قلبها الآن فارغا، وأصبحت قلقة، كأنه ليس في الدنيا سوى ابنها، فالواقع أن الإنسان له حال قبل نزول البلاء، وله حال بعد نزوله، ولهذا لا ينبغي للإنسان أن يعرض نفسه للبلاء.

المرجع/ كتاب تفسير القرآن الكريم - محمد بن صالح العثيمين ط/ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية - تفسير سورة القصص ص٤٧

{وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين} القصص :١٠

في قوله: {لتكون من المؤمنين} دليل على أن الإيمان والكمال في الرجال أكثر؛ لأنه لم يقل: لتكون من المؤمنات، ويدل على ذلك أيضا قوله تعالى في مريم: {وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين} [التحريم: ١٢]، ولهذا جاء في الحديث: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران".

ولا ريب أن الإيمان في الرجال أكثر وأثبت وأزيد، ففي الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: "ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن"

{وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين} القصص :١٠

فيها دليل على إثبات القضاء والقدر، نأخذه من قوله تعالى:
{لولا أن ربطنا على قلبها}؛
فإن هذا من قضاء اللّه سبحانه وتعالى وقدره.

وفيها دليل على فضيلة أم موسى -رضي اللّه عنها-؛ لكونها لم تبد ما في قلبها لأحد،
لقوله: {إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها}.

{ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين} القصص :١٥

أن اللّه سبحانه وتعالى يجري الأمور بأسباب،
وأصل القصة دخول موسى عليه السلام المدينة،
ووجود الرجلين، وقتله النفس،
كل هذا كان سببا لخروج موسى، ثم نبوته.

المرجع/ كتاب تفسير القرآن الكريم - محمد بن صالح العثيمين ط/ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية - تفسير سورة القصص ص٧٢

{ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين} القصص :١٥

قوله تعالى: {فاستغاثه} فيه جواز الاستغاثة بالمخلوق، فهي مشروعة بما تفيد فيه، أما ما لا يفيد فيه، فلا يجوز.

فعلى هذا إذا استغاث إنسان بميت، فلا يجوز؛ لأنه لا يفيده، وإذا استغاث بحي بما لا يقدر عليه، فلا يجوز؛ لأنه لا يفيده، وإذا استغاث بحي فيما يقدر عليه فهو جائز.

إذن: الاستغاثة بالمخلوق جائزة بشرط أن يكون فيما يفيد، كذلك في حي قادر على دفع الشدة.

{ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين} القصص :١٥

إثبات العداوة والولاية؛ لقوله: {فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه}،
وهو أصل في الدين، فإن ولاية المؤمنين من واجب المؤمن، والبراءة من الكفار من واجب المؤمن،
قال تعالى:
{قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله} [الممتحنة: ٤]،
فهذا أمر لابد منه، فلابد أن يتبرأ الإنسان من كل كافر.

{قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم} القصص :١٦

إثبات أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- قد يخطئون،
ولكن يكون ذلك قبل الرسالة، لكن لا يقع منهم فساد الأخلاق وشرب الخمور، وما أشبه ذلك،
أما الغيرة والحمية فهذا قد يقع منهم.

{قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم} القصص :١٦

في قوله تعالى: {فغفر له} استجابة اللّه سبحانه وتعالى،
وما تضمنته هذه الاستجابة من صفات؛ لأن الاستجابة تتضمن السمع والعلم والقدرة والغنى،
فإذا استجاب اللّه لإنسان فمعناه أنه كان قد سمعه، وعلم بحاله، وقدر على إعطائه سؤله.

وإثبات كرم اللّه؛ لقوله تعالى: {فغفر له}.

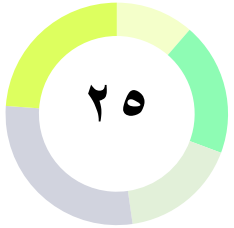

{قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم} القصص :١٦

جواز التوسل إلى اللّه سبحانه وتعالى بحال الداعي، ويؤخذ من قوله تعالى: {رب إني ظلمت نفسي}، فالظالم لنفسه محتاج إلى من ينصحه، فهو توسل إلى اللّه سبحانه وتعالى بحال الداعي، ومنه قوله سبحانه وتعالى عن موسى: {رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير} [القصص: ٢٤].

والتوسل إلى اللّه سبحانه وتعالى يكون بحال الداعي، ويكون بالثناء على اللّه بأسمائه وصفاته، وكذلك بأفعاله، التي ينعم بها، وقد اجتمع الجميع في تعليم النبي -صلى اللّه عليه وسلم- لأبي بكر عندما قال له: علمني دعاء أدعو به في صلاتي؟ قال: "قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم"

{قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين} القصص :١٧

كمال موسى عليه الصلاة والسلام؛ حيث التزم لله تعالى شكرا على نعمته بألا يكون ظهيرا للكافرين والمجرمين.

وفيها دليل على أن مظاهرة المجرم تنافي الشكر، فهي محرمة؛ لأنها إجرام حقيقة، بل تكون مساعدة المجرم بمنع إجرامه، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "انصر أخاك ظالما، أو مظلوما". قالوا: يا رسول الله، هذا الظالم فكيف ننصر المظلوم؟ قال: "تمنعه من الظلم"

{فأصبح في المدينة خائفا يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين} القصص :١٨

الخوف نوعان:

الأول: خوف عبادة يقتضي التقرب إلى المخوف، والتزام طاعته، ونحو ذلك.

الثاني: خوف طبيعي مما يخاف منه، وهذا لا بأس به؛ لأنه من طبيعة البشر، لكنه يكون مذموما إذا أدى إلى ترك واجب، أو فعل محرم، قال تعالى: {إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين} [آل عمران: ١٧٥]

{ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير} القصص :٢٣

لا ينبغي أن يحكم على الأمور إلا بعد معرفة الأسباب،
فإن موسى لم يحكم على المرأتين بأي حكم إلا بعد أن قال: {ما خطبكما}
يعني: لماذا تذودان غنمكما عن السقي؟ ولم يحكم بأي حكم على هذا الأمر، فسألهما.

{قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين} القصص :٢٤

ينبغي أن يتحرى الإنسان في جميع أحواله من كان قويا أمينا، لقولها: {إن خير من استأجرت القوي الأمين}، والقوة في العمل بحسبه، فالقوة على الأعمال البدنية معناها قوة البدن، والقوة في الأمور الفكرية قوة الفكر في هذا الشيء، والقوة في الأمور الحربية الحرب نفسها، فكل شيء قوته بحسبه، وباختلال أحد الوصفين يختل العمل، فإذا اختلت القوة، وصار الإنسان ضعيفا لا يستطيع أن يقوم بالعمل -ولو كان من آمن الناس- يجب أن يتنحى، أو يجب تنحيته، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام لأبي ذر: "يا أبا ذر، إني أراك ضعيفا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم"

{قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين} القصص :٢٤

تلطف هذه المرأة في مخاطبة أبيها ، لقولها: {يا أبت}، ولهذا قالوا: لا ينبغي للإنسان أن ينادي والده باسمه، كأن يقول مثلا: يا عبد الرحمن، يا عبد العزيز، وما أشبه ذلك، حتى إن بعضهم يقول: إذا نادى أباه باسمه يعزر؛ لأنه نوع من الاحتقار له، وأما الخبر عنه باسمه، فلا بأس مثل أن يقول: قال فلان، فلا حرج، ولهذا كثيرا ما نسمع في الأحاديث أن ابن عمر يقول: قال عمر، وما أشبه ذلك، وهذا لا بأس به، بخلاف النداء، فالنداء له حال، والخبر له حال أخرى.

{فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين} القصص :٢٧

يستفاد من قوله تعالى: {ستجدني إن شاء اللّٰه من الصالحين}، أنه لا ينبغي للمرء أن يعزم على فعل الشيء إلا مقرونا بالمشيئة، بل إن اللّٰه سبحانه وتعالى نهى نبيه أن يعزم على فعل الشيء بدون قرنه بالمشيئة، فقال تعالى: {ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا} [الكهف: ٢٣].

والقرن بالمشيئة فيه فائدتان:

الأولى: تفويض المرء الأمر إلى اللّٰه، وهذا هو تحقيق التوكل.

الثانية: تيسير الأمر له، ولهذا قال النبي -صلى اللّٰه عليه وسلم- في قصة سليمان: "لو قال: إن شاء اللّٰه لم يحنث وكان دركا لحاجته"

{فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين} القصص :٢٧

قوله: {من الصالحين} أي: الوافين بالعهد؛ لأن صلاح كل شيء بحسبه، فهنا المسألة عقد إجارة، والصلاح فيها يكون بالوفاء، وفي كل موضع بحسبه، والصلاح في الدين هو القيام بطاعة اللّه، وصلاح الطعام ألا يكون متغيرا برائحة كريهة، أو فساد، فالصلاح في كل موضع بحسبه.

{قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل} القصص :٢٨

يستفاد من قوله تعالى: {بيني وبينك} أن العقود عهود في الحقيقة، وهو كذلك؛ لأن كل إنسان يعقد مع شخص فقد التزم ألا يخونه، والتزم أن يفي له بمقتضى هذا العقد، فيكون بذلك عهدا، في سورة الإسراء يقول اللّه تبارك وتعالى: {وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا} [الإسراء: ٣٤]، وقد قال قبلها: {ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا} [الإسراء: ٣٤]، فالولاية على اليتيم نوع من العقد، وجعلها اللّه تعالى عهدا، فقال: {وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا}.

{قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل} القصص :٢٨

جواز إشهاد اللّه على العقد لقوله تعالى: {واللّه على ما نقول وكيل}، ولكن شرعا لا يقتصر على ذلك، فأنت تشهد للّه، لا لغرض آخر، لكن باطنا فيما بينهم، وبين اللّه يكتفى به، ويستفيد الرجل إذا أشهد اللّه، أو جعله الوكيل الحفيظ المراقب، أن يذكر بانتقام اللّه منه إذا خالف، أو خان.

فمن أشهد اللّه، ثم خان، فقد استخف به، وهي كذلك في حق المخلوقين، ففي بالك أن تكون في حق اللّه عز وجل؟

{فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون} القصص :٢٩

من تعهد بشيء فإنه لا يشتغل بغيره حتى انتهائه منه؛ لقوله: {فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله}، وهذه قاعدة مهمة، إذا اشتغل الإنسان بشيء لا ينتقل إلى غيره حتى يتمه، وكذلك كان السلف، كانوا يبدؤون بحفظ القرآن، فلا ينتقلون إلى غيره حتى يختموه، وهكذا.

{فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون} القصص :٢٩

أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- حتى قبل النبوة هم كغيرهم من البشر؛ يحسون بآلام البرد، وكذلك بآلام الجوع وغيره، ويهتدون إلى الطريق، وقد يضلون عنه، وهنا فائدتان شرعيتان:

الأولى: أنهم لا يعلمون الغيب؛ إذ لو كانوا يعلمون الغيب ما ضلوا عن الطريق.

الثانية: أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا، ولا ضرا، فإذا كانوا لا يملكون ضرا لأنفسهم، فلغيرهم من باب أولى، وهذا مصرح به في قوله تعالى: {قل لا أقول لكم عندي خزائن اللّه ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك} [الأنعام: ٥٠]، وقال اللّه تعالى لنبيه: {قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا (٢١) قل إني لن يجيرني من اللّه أحد ولن أجد من دونه ملتحدا} [الجن: ٢١ - ٢٢].

{فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون} القصص :٢٩

أن اللّٰه تعالى إذا أراد أمرا هيأ أسبابه، وأن اللّٰه لما أراد أن يوحي إلى نبيه موسى في ذلك المكان، هيأ له أسبابا توصله إلى النار التي رآها وقصدها.

وأنه ينبغي للإنسان أن يبقى في المكان الذي فارقه فيه صاحبه، لأن موسى قال لأهله: {امكثوا}، حتى يستطيع أن يرجع إليهم، وكذلك هم لا يضلون عن الطريق، وهذه عادة من الحزم.

{فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون} القصص :٢٩

اتخاذ الأسباب لا ينافي التوكل، بل هو من تمام التوكل، ومن تمام معرفة الإنسان باللّه سبحانه وتعالى أن نأخذ بالأسباب؛ حيث إن الإنسان يعلم أن اللّه تعالى جعل لكل شيء سببا ، فيأخذ بهذه الأسباب حتى يصل إلى الغاية، لكن المحظور أن يعتمد الإنسان على السبب ويظن أنه هو الغاية، فالتوكل على اللّه مع الأخذ بالأسباب هذا من تمام معرفة الإنسان لربه.

{فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين} القصص :٣٠

مذهب أهل السنة والجماعة أن اللّه يتكلم بحرف وصوت،
والحرف من جنس الحروف التي يتكلم بها الناس، وهذا لا يقتضى التشبيه؛
لأن الحروف هذه ليست صفة للّه، بل صفة اللّه الصوت؛
أما الحروف، فإنها منطوق بها وليست نطقا، فلا يوجد تشبيه.

{فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين} القصص :٣٠

أن الأرض تكون مباركة بركة ظاهرية، لا بركة مطلقة؛
لقوله: {في البقعة المباركة}
فالبركة هنا لموسى، لا لكل أحد

{وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين} القصص :٣١

عناية اللّٰه تعالى به، حيث ناداه وطمأنه بقوله: {أقبل ولا تخف}، ولم يقتصر على قوله: {لا تخف}، بل طلب منه الإقبال إليه {أقبل ولا تخف}، وهذا يدل على عناية اللّٰه به، ومحبته له.

وأنه ينبغي للمستدعي لغيره أن يذكر السبب في ذلك؛ لقوله: {إنك من الآمنين}؛ لأنه لو قال: لا تخف. فإنه يزول عنه الخوف، ولكنه لا يكون مطمئنا تماما، ولكنه إذا قال: {إنك من الآمنين} ازداد بذلك طمأنينة.

{وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين} القصص :٣١

فيها دليل على حكمة اللّه سبحانه وتعالى أيضا ، حيث إن هذه الآية مناسبة لمن سيقابلهم موسى، وهم السحرة، مقابل الآية هناك، وهذه الآية مناسبة تماما لهم؛ لأنهم سوف يعجزون عن مقابلتها ، كما حصل من السحرة حين آمنوا لما رأوا دليل صدق موسى عليه السلام.

{اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب
فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين} القصص :٣٢

أن اللّه سبحانه وتعالى يجدد لهذه الأمة دينها كلما خرجوا عنه، فاللّه عز وجل يرسل الرسل عند الحاجة إليهم، وعندما لا يكون هناك رسول -كحال أمتنا- يبعث دعاة صالحين مصلحين للخلق.

والغالب أن أتباع رؤساء الكفر هم الأشراف، وإن كانت تطلق على القوم كما ذكرت في آية أخرى: {إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين} [القصص: ٣٢]؛ لأن الملأ هم الأشراف، وإن كانت تطلق على القوم؛ لأن اللّه ذكر في آية أخرى: {إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين} [النمل: ١٢]، لكن الغالب أن الملأ هم الأشراف، وهم الذين غالبا يستكبرون على ما جاءت به الرسل، أما الضعفاء والفقراء، فإنهم يتبعونهم.

{قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون} القصص :٣٣

جواز الأخذ بالعذر عند الأمر به، حتى في طاعة ولي الأمر، فمثلا لو أمرك بشيء؛ لأن طاعته واجبة في غير المعصية؛ فإنه لا بأس أن تذكر العذر لأجل أن تتخلص من هذا الأمر، كما كان الصحابة -رضي اللّٰه عنهم- يقدمون للنبي -صلى اللّٰه عليه وسلم- العذر إذا أمرهم بالشيء، ليعذرهم.

{قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون} القصص :٣٣

أن القصاص موجود فيما سبق في الأمم السابقة؛ لقوله: {فأخاف أن يقتلون}
بدلا من الذي قتله موسى، وقد يكون رغبتهم في قتله من باب القصاص، وكان معروفا عندهم،
أو من باب العدوان من آل فرعون، وإن لم يكن بحق،
ولا ننسى أنه لا يقتل مسلم بكافر في شريعة الإسلام.

{وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون} القصص :٣٤

بيان المنة الكبرى من موسى لأخيه، حيث جعله الله تعالى مرسلا معه،
ولهذا يقال: أعظم هدية أهداها خليل لخليله هي التي كانت من موسى لهارون؛
لأنه سأل الله أن يرسله معه، والرسالة مقام عظيم لا يناله إلا الخيرة من بني آدم.

{وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون} القصص :٣٤

اتخاذ الأعوان من أسباب النجاة، وهذا أمر معلوم من قديم الزمان وحديثه،
أنه كلما كان الإنسان معه من يعينه ويساعده، كان ذلك أقرب إلى نجاحه من انفراده،
والعوام يقولون: (يد واحدة لا تصفق).

{وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون} القصص :٣٤

فصاحة اللسان لها تأثير قوي في القبول، أو الرفض، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "إن من البيان لسحرا"، لقوله: {هو أفصح مني لسانا}.

وفضيلة موسى عليه الصلاة والسلام، لإقراره بالفضل لأخيه {هو أفصح مني لسانا}؛
لأن من الناس من يكون ناقصا، ولكن لا يستطيع أن يعبر بالكمال لغيره، والنقص لنفسه.

{وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون} القصص :٣٤

أن الخبر يزداد ثبوتا وتبيينا بتعدد مخبريه؛ ليزداد قوة ووضوحا عند آل فرعون؛
لأن الرسالة خبر، فإذا كان معه من يقويه على هذا الخبر ويثبته ويصدقه؛
فإنه يكون أقوى، والآية شاهد له.

{قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون} القصص :٣٥

قوله: {أنتما ومن اتبعكما الغالبون}، يستفاد منه أن أتباع الرسل غالبون لمن خالفوا الرسل دائما وأبدا، قال النبي عليه الصلاة والسلام: "نصرت بالرعب مسيرة شهر"

الله أكبر! ما أعظم هذه الفائدة لو أننا كنا على المستوى الذي ينبغي، فلو كنا متبعين لهذا النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم- على وجه الحقيقة، لكان عدونا مرعوبا منا مسيرة شهر، لكننا -مع الأسف الشديد- لم نكن متبعين للرسول عليه الصلاة والسلام حقيقة، ولذلك صار بأسنا بيننا، لا من يدعي الإسلام منا، ولا من أراد أن ينزوي تحت قاعدة الجاهلية، وهي القومية العربية، فإن هذه القومية ما انتصرت منذ نشأت إلى اليوم، ولن تنتصر أبدا، بل لا تزداد إلا فشلا وتفرقا وتصدعا وقتالا فيما بينها. وكذلك أيضا في الحقيقة ما اجتمعنا على قومية إسلامية، فيبقى المسلمون لا على هذا، ولا على هذا، ولهذا ما كان لنا النصر الذي وعد الله به نبيه -صلى الله عليه وسلم-.

{قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون} القصص :٣٥

أن العلم سلاح؛ لأن السلطان معناه: القوة والغلبة،
وإذا كان سببه العلم كان ذلك دليلا على أن العلم سلاح من أعظم ما يدافع به الإنسان ويحاجج أيضا.

{فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين} القصص :٣٦

أن أعداء الرسل يلقبون الرسل بألقاب السوء والعيب؛ لقوله: {ما هذا إلا سحر مفترى}، فليس عند أعداء الرسل إلا أنهم يلقبونهم بألقاب: هذا ساحر، هذا مجنون، هذا شاعر، وما أشبه ذلك.

فائدة متفرعة، وهي أن أعداء الرسل سوف يلقبون من يدعون بدعوة الرسل بمثل هذه الألقاب، فيقولون عنهم: رجعيون، متأخرون، متزمتون، متشددون، متعصبون، وما أشبه ذلك، أو ربما يكون أبلغ من هذا فيقولون: ضالون، {وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون} [المطففين: ٣٢].

فدعوة الحق لها أعداء، هؤلاء الأعداء الذين قابلوا الرسل بما قابلوهم، والرسل هم الأقوى في القيادة، سيقابلون من بعدهم بمثل ما قابلوهم به، أو أكثر.

فوائد مستنبطة من تفسير سورة القصص

{وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون} القصص :٣٧

فيها دليل على أن الهدى من اللّٰه سبحانه وتعالى، فهو الذي يأتي بما يحسن الاهتداء به، ويوفق من شاء من عباده له، فالهدى من عند اللّٰه، {أعلم بمن جاء بالهدى من عنده} فهو ضلال، والهدى من عند اللّٰه، فما خالفه فهو ضلال.

{فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين} القصص :٤٠

يطلب من المرء إما وجوبا ، أو استحبابا ، أن يتأمل في عاقبة الظالمين،
لقوله: {فانظر كيف كان عاقبة الظالمين}،
وأنه ينبغي لنا أن نتعظ بعاقبة هؤلاء، فلا نظلم مثلهم؛ لأنه ما دام عاقبة الظالم الهلاك؛
فإن الإنسان يخشى أن يهلك إذا ظلم.

{فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين} القصص :٤٠

أن الظلم محرم؛ لأنه سبب في العقوبة، وما كان سببا لعقوبة، فإنه محرم، وسواء كان الظلم للنفس، أو للغير؛ لأنه محرم بجميع أنواعه،
قال اللّٰه تعالى في الحديث القدسي:
"يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا"

{وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون} القصص :٤١

حكمة اللّه سبحانه وتعالى في مثل فرعون وقومه؛ لأن إيجادهم حكمة، فإن اللّه قادر على أن يجعل الناس على الهدى، لكنه سبحانه وتعالى له الحكمة في أن يوجد مثل هؤلاء القوم الذين يدعون إلى النار.

وحكمة اللّه تعالى فيما خلق من أمره، وأنه بلاء وفتنة.

{وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون} القصص :٤١

إثبات الإمامة في الشر، فانظر إلى هذه في آل فرعون، وانظر إلى هذه في بني إسرائيل {وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون} [السجدة: ٢٤]، ففرق بين من يقود الناس بأمر الله، أو من يقودونهم بشريعته، وبين من يدعون إلى النار.

وأن الدعاء إلى النار وإلى الخير أيضا، كما يكون بالقول يكون بالفعل، وقد يكون ما هو بالقول أقوى، وقد يكون ما هو بالفعل أقوى، إنما على كل حال الدعاء بهذا وبهذا ثابت؛ فإنه كان يدعو الناس بمقاله وبحاله.

{وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين} القصص :٤٢

أن عقوبة آل فرعون كانت ممتدة إلى يوم القيامة بالذكرى السيئة لهم،
لقوله تعالى: {وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة}؛
فإن كل من ذكر آل فرعون يذكرهم بالسوء، والبغض، والكراهية.

{وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين} القصص :٤٢

تحقير الدنيا؛ فإن قوله: {في هذه الدنيا} تقال للقريب؛ لدنو مرتبته، وأنها دنيا، والدنيا مؤنث أدنى، وهي من الدنو الحسي والمعنوي؛ أما الدنو الحسي فلسبقها على الآخرة، فهي أدنى إلى المخلوقين من الآخرة، وأما الدنو المعنوي فلما تتضمنه من النقص في جميع كمالاتها، فما من كمال في الدنيا إلا وهو ناقص، والآن لو تأملت جميع المضار والمنافع الدنيوية، تجدها مشوبة بالضرر والخطر، حتى الزمان، كما قال الشاعر :

فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نساء ويوم نسر

{ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون} القصص :٤٣

أن إتيان التوراة كان بعد إهلاك الأمم السابقة، ومنهم فرعون، واستنبط منها بعض العلماء من قوله تعالى:
{من بعد ما أهلكنا القرون الأولى} أنه لم تهلك أمة على العموم بعد نزول التوراة؛ لأنه قال تعالى:
{من بعد ما أهلكنا القرون} وكأنه بعد نزول التوراة ما أهلك أحد من القرون،
وهذا الاستنباط ليس ببعيد؛ لأن الواقع يصدقه.

{ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون} القصص :٤٣

قوله تعالى: {آتينا} بمعنى: أعطينا.
واعلم أن إيتاء اللّٰه سبحانه وتعالى ينقسم إلى قسمين:

إيتاء شرعي: وهو ما تعلق بالشرع، قال تعالى: {ولو أنهم رضوا ما آتاهم اللّٰه ورسوله} [التوبة: ٥٩]،
فهذا إيتاء شرعي، والمراد به: الصدقات.

وإيتاء قدري: وهو ما تعلق بالكون والخلق، قال سبحانه وتعالى: {آتينا موسى الكتاب}،
فهذا إتيان قدري؛ لأن إنزال القرآن من الأمور التي تتعلق بمشيئة اللّٰه لا بشرعه؛
فأصل الإنزال قدري يتعلق بمشيئة اللّٰه وقدره، لكن العمل به شرعي.

{وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين} القصص :٤٤

أن الإنسان لا يقبل خبره إلا إذا كان حاضرا يسمع، أو شاهدا يرى؛ لقوله: {وما كنت}،
وقوله أيضا: {وما كنت من الشاهدين}؛ فإن الذي يمكن أن يخبر هو من حضر فسمع، أو من قرب فشاهد،
أما إنسان يخبر دون شهادة، أو دون شهود، أو حضور؛ فإنه لا يقبل خبره، وهذا أمر معلوم من الشرع من جهة أخرى،
من آيات أخرى، وأدلة أخرى، أن الإنسان لا يشهد إلا بما علم برؤية، أو سماع، أو غيرهما من أسباب العلم.

{فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون} القصص :٤٨

ينبغي في مقام المناظرة والمجادلة أن يفحم الخصم بإبطال قوله بقوله، أو بفعله، أنه يبطل قوله بما جرى منه هو؛ لأن ما جرى منه لا يمكن أن ينكره، ولو أنكره ما قبل، فكوننا نقيم الحجة على الخصم من فعله وقوله هذا أبلغ في إفحامه.

{فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون} القصص :٤٨

طمأنة أتباع الرسل، وتثبيتهم على أنهم سينالهم من ألقاب السوء، ومن المعاداة مثل ما نال الرسل، فعليهم أن يقابلوا ذلك بالصبر والثبات والقوة، لا أن يخذلوا، بل عليهم أن يكونوا كما كان متبوعهم الذي أمره اللّه قائلا: {فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار} [الأحقاف: ٣٥]

{فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون} القصص :٤٨

أن التعاون حتى على الباطل له تأثير وتقوية، يؤخذ من قوله: {تظاهرا}
فإذا كان التعاون في الباطل له تأثير،
فما بالك بالتعاون في الحق؟

{قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين} القصص :٤٩

من العدل التنزل مع الخصم إلى حال يقر بها؛ فإنه من المعلوم أن اللّه سبحانه وتعالى يعلم أنه لا يمكن أن يأتوا بما طلب منهم، وذلك حين طلب منهم أن يأتوا بكتاب أهدى من التوراة والقرآن، وذلك في قوله تعالى: {قل فأتوا}، مع أنه يعلم أنه يستحيل ذلك، ولكن هذا من باب التنزل مع الخصم إلى غاية ما يكون من العدل، كأنه جعله مع خصمه شيئا واحدا، فيقول: أنتم ائتوا بكتاب أهدى من التوراة والقرآن، وأنا ألتزم باتباعه، فإذا لم يأتوا، فمعناه ألزمهم أن يتبعوا التوراة والقرآن.

{فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين} القصص :٥٠

عدم مجادلة المتبع هواه المكابر، فليس هناك سبيل لإقناعه، فهو يريد أن ينتصر لنفسه فقط، ويتبع هواه، فما دام الرجل صاحب هوى، فالجدال معه لا فائدة منه، قال تعالى: {فاعلم أنما يتبعون أهواءهم}، فإذا بينت للإنسان الحق، ووضحته بأدلته النقلية والعقلية والحسية حسب ما هو موجود من الأدلة، ولكنه أصر على أن يبقى على ما كان عليه؛ فاعلم أنه يتبع الهوى، والمتبع الهوى مشكل، فما هو بالذي يطلب الهدى، ولا بالذي يريد أن ينتفع.

ولهذا نقول في هذا الحال: لا يجب على المرء مجادلته، وإنما ينتقل إلى شيء آخر، وهو معاقبته، قال تعالى: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم} [العنكبوت: ٤٦]

{فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين} القصص :٥٠

اختلاف الناس في الضلال، فليسوا على حد سواء في الضلال، كما أنهم ليسوا على حد سواء في الهدى، وليسوا على حد سواء في الغي، وليسوا على حد سواء في الرشد، ولهذا قال: {ومن أضل ممن اتبع}.

{فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين} القصص :٥٠

أن الهوى قد يكون موافقا للهدى، نأخذه من قوله تعالى: {اتبع هواه بغير هدى من اللّه} أما من اتبع هواه بناء على هدى من اللّه، فهذا طيب، أن يكون هواه تبعا لما جاء به الحق، وقد ذكرنا لكم حديثا مرويا عن النبي عليه الصلاة والسلام: "لا يؤمن أحدكم حتي يكون هواه تبعا لما جئت به".

فالحاصل: أن الهوى المذموم هو الذي ليس على هدى.

{فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين} القصص :٥٠

أن من تحرى العدل فإنه قد تعرض للهداية؛ لأن الظلم ضده العدل، وانتفاء الهداية بوصف الظلم يقتضي ثبوت الهداية بوصف العدل، فمن تحرى العدل، فإنه يوفق للهداية، فالعدل سبب للهداية، وهكذا كل من تحرى الخير -لكن عسى اللّه أن يوفقه لتحريه- فإنه يوفق له إذا كانت النية صادقة، والعزم أكيدا.

{أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون} القصص :٥٤

أن المؤمنين من أهل الكتاب لهم أجران: الأجر الأول الإيمان بكتابهم، والثاني: الإيمان بالقرآن.

وإثبات عدل الله سبحانه وتعالى؛ حيث لم يضيع أجرهم الأول بالأجر الثاني، ولا الأجر الثاني بالأجر الأول.

{أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون} القصص :٥٤

ينبغي مقابلة المسيء بالإحسان، فالحسنات يذهبن السيئات، فالآية -كما قلنا- عامه لدرئه سيئاتهم بحسناتهم، ودرئهم سيئات غيرهم بالإحسان إليهم، وأتينا لذلك بشاهد من القرآن، لكن درء سيئات الآخرين بالإحسان إليهم ثقيل على المرء جدا، ولهذا قال الله تعالى: {وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم} [فصلت: ٣٥].

{أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون} القصص :٥٤

أن المنفق لم ينفق مما صنعه، أو اكتسبه بنفسه، ولكن ينفق من رزق اللّه، فاللّه هو الذي رزقك، وهو الذي أمرك، فأنت في الحقيقة خادم، عبد متصرف حسب أمر سيدك، قال لك: اكتسب. فاكتسبت، قال لك: أنفق. فأنفقت.

{أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون} القصص :٥٤

قوله: {ومما رزقناهم ينفقون}، وقوله في وصف عباد الرحمن: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما} [الفرقان: ٦٧]، وبين قوله: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا} [الإسراء: ٢٩]، نجمع بينهما بأن غالب أحوال الناس ألا ينفقوا جميع أموالهم؛ لأن إنفاق جميع المال قد يكون مضرا بهم، لكن في بعض الأحيان يكون إنفاق جميع المال محمودا، فلهذا قال: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك} فلا تنفق، {ولا تبسطها كل البسط} فتنفق كل ما عندك.

لكن النصوص الأخرى تدل على أن المسألة مبنية على تغير الحكم بتغير الأحوال، فقد يكون الأفضل إنفاق جميع المال، وقد يكون من الأفضل إنفاق بعضه.

{وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين} القصص :٥٥

ينبغي الإعراض عن اللغو، وهو الكلام الذي لا فائد فيه، ولا خير منه، والفعل يقاس عليه،
فلا ينبغي للإنسان أن يمضي وقته في أفعال لا خير فيها.

واعلم أن الخيرية ذاتية وعرضية، بمعنى أنه قد يكون الشيء خيرا في ذاته،
وقد يكون خيرا لغيره؛ لعارض يعرض له.

{وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين} القصص :٥٥

لا ينبغي للعاقل طلب السفهاء، فضلا عن الجلوس معهم؛ لقوله: {لا نبتغي الجاهلين}؛
لأن طلبهم في الحقيقة يؤدي إلى الجلوس معهم، والجلوس مع الجاهلين إثم،
كما قال الله تعالى: {وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره
وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين} [الأنعام: ٦٨]،
فلا ينبغي للإنسان أن يتطلب أهل السفه، ويجلس إليهم، أو على الأقل يأنس بما يفعلون؛
فإن هذا من الصفات التي ليس عليها أهل الخير والإيمان.

{إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين} القصص :٥٦

أن الإنسان إذا جد واجتهد في دعوة الناس إلى الهدى، فلم يهتدوا، فإن عليه أن يتلو هذه الآية، وهي: {إنك لا تهدي من أحببت}،

وإلا فكثير من الناس الآن عندهم أقارب؛ إما معهم في البيوت، أو خارج البيوت، يدعونهم إلى الهدى فلا يهتدون، فنقول: الحمد لله أن بين سبحانه وتعالى أن هذا الأمر ليس إلينا، إنما هو إليه، إن اهتدوا، فلهم ولنا ثواب دلالتهم، وإن لم يهتدوا، فلنا ثواب الدلالة والدعوة، وعليهم وزر الغي.

{قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون} القصص :٧١

يان نعمة اللّٰه على العباد بضياء النهار، فكم تستهلك الأمة من طاقة في إضاءة الليل الذي لا يكون مثل إضاءة النهار، وبهذا نعرف قدر نعمة اللّٰه سبحانه وتعالى بهذا الضياء الذي يصل إلى الناس بكميات كبيرة.

{إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين} القصص :٧٦

أن من حسن الدعوة إلى اللّه سبحانه وتعالى أنه إذا ذكر الحكم تذكر العلة، تخويفا، أو ترغيبا، إن كان منصوحا بطلب تذكر العلة ترغيبا، وإن كان منصوحا بنهي، فإنها تذكر تخويفا؛ لقوله: {لا تفرح إن اللّه لا يحب الفرحين}

{وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين} القصص :٧٧

ينبغي لمن آته اللّه مالا أن يحسن النية، والقصد في بذله، أي: كل إنسان عنده مال ينبغي بذله، لكن ينبغي أن يحسن النية والقصد، لقوله تعالى: {وابتغ فيما آتاك اللّه الدار الآخرة}، وقد أشار إلى ذلك النبي -صلى اللّه عليه وسلم- حين قال لسعد بن أبي وقاص: "واعلم أنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه اللّه إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل في فم امرأتك"، فقد قيدها بقوله: "تبتغي بها وجه اللّه"، أما لو أنفق الإنسان لغير هذا الغرض؛ فإنه لا يثاب، وإن أنفق لغرض سيئ؛ فإنه يعاقب.

{وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين} القصص :٧٧

أنه ينبغي للداعي أن يذكر المدعو بنعمة اللّه سبحانه وتعالى؛ لأن الإنسان إذا ذكر بالنعمة، فقد يخجل من اللّه، فلا يعصه.

أما إذا ذكر له الأمر والنهي مجردا عن الأسباب والوسائل التي تحمله على الفعل، أو الترك؛ فإن هذه الدعوة تكون قاصرة، فالذي ينبغي للداعي أن يذكر المرء المدعو بما يقتضي إقباله وقبوله؛ لقولهم: {وأحسن كما أحسن اللّه إليك}.

{وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين} القصص :٧٧

من حسن الدعوة ألا يؤيس الإنسان، فيقال: لا بد أن تكون كل أفعالك للآخرة؛
لأن الإنسان إذا طلب منه أن تكون كل أفعاله للآخرة، فقد ينحسر،
ولا يقبل، ممن إذا قيل له: هذا وهذا، فهو أدعى للقبول،
وهو من حسن الدعوة التي سلكها هؤلاء الدعاة.

{وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون} القصص :٨٠

لا يوفق لذلك الثواب في الآخرة إلا الصابرون على طاعة اللّه،
وعن معصيته، وعلى أقداره؛
لقوله تعالى: {ولا يلقاها إلا الصابرون}.

{وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون} القصص :٨٢

أن تمني متاع الدنيا لا بد أن يتبين للمرء أنه تمن لا حقيقة له؛ وذلك لأنه يزول، فهؤلاء الذين تمنوا مثل ما أوتي قارون لما زال، وخسف به عرفوا أن هذا التمني في غير محله، وأن حقيقة الأمر أن يتمنى الإنسان ما فيه ثواب الآخرة.

{تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين} القصص :٨٣

ذم من يريد العلو والفساد، سواء علا وأفسد، أو لم يعل ويفسد؛
لأنه إذا كان في الجنة هؤلاء الذين لا يريدون علوا ولا فسادا،
وهذا مدح لهم بلا ريب؛ فإن من أراد فهو مذموم،
سواء تمكن من تنفيذ إرادته أم لم يتمكن.

{من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون} القصص :٨٤

جزاء الحسنة خير منها بالكمية والكيفية، أما الكمية فالحسنة بعشر أمثالها، وأما الكيفية، فإن جزاء الحسنة دائم، وفعل الحسنة ليس بدائم، فالفعل ينتهي بموت الإنسان، ولهذا قال الله تعالى: {بل تؤثرون الحياة الدنيا (١٦) والآخرة خير وأبقى} [الأعلى: ١٦ - ١٧].

{من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون} القصص :٨٤

ليس المدار على عمل الحسنة، بل المدار على أن يأتي بالحسنة؛ لقوله: {من جاء}،
فقد يعمل الإنسان الحسنة، ولكن يأتيها ما يبطلها،
فالمدار على أن يأتي الإنسان يوم القيامة بالحسنة، لا على أن يفعلها.

{من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون} القصص :٨٤

التنديد بعامل السيئات، أي: الذين يعملون السيئات؛ لأنه قال: {ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات} لم يقل: {فلا يجزى إلا مثلها}، كما قال في آية أخرى، ولكن قال: {فلا يجزى الذين عملوا}، فهذا تنديد بهم، وبيان لاستحقاقهم ما يسوؤهم من العذاب، كأنه قال: لأنهم عملوا السيئات يجزون سيئة، فهذا لا شك أنه تبكيت، وتنديد بهم؛ لعملهم السيئات.

{من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون} القصص :٨٤

أن ثواب الله سبحانه وتعالى دائر بين العدل والفضل، وهذان قسمان، ثالثهما: الجور.

الفضل بالنسبة للمحسنين، كما قال: {من جاء بالحسنة فله خير منها}، والعدل بالنسبة للمسيئين، كما قال: {ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون}.

أما الجور، فهذا ممتنع في حق الله، قال تعالى: {ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما} [طه: ١١٢]، فجزاء الله تعالى دائر بين الفضل والعدل.

إذن: فهو محمود على كل حال؛ لأنه إما عدل، وإما فضل.

{إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين} القصص :٨٥

الحكمة من إنزال القرآن، وهو المجازاة على العمل به؛ لأن قوله:
{إن الذي فرض عليك القرآن لرادك} كأنه علة ومعلولها،
كأنه إنما فرض القرآن من أجل المجازاة عليه.

المرجع/ كتاب تفسير القرآن الكريم - محمد بن صالح العثيمين ط/ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية - تفسير سورة القصص ص٣٨٨

{إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين} القصص :٨٥

أنه ما عدا الهدى فهو ضلال؛ لقوله: {أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين}،
وأنه ليس ثمة واسطة بين الهدى والضلال،
مثل قوله تعالى: {فماذا بعد الحق إلا الضلال} [يونس: ٣٢]،
ومثل قوله تعالى: {وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين} [سبأ: ٢٤]

{وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين} القصص :٨٦

هذا القرآن رحمة؛ أولا وآخرا ، وهو أعظم نعمة من اللّه سبحانه وتعالى،
وأعظم من نزول المطر الذي تحيا به الأرض؛ لأن القرآن تحيا به القلوب،
وتصلح به الأعمال، وبحياة القلوب والأعمال تحيا الأرض،
قال تعالى: {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض} [الأعراف: ٩٦].

{وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين} القصص :٨٦

من قوله: {فلا تكونن ظهيرا للكافرين}، ففيه تحريم مظاهرة الكفار، أي: معاونتهم؛ لأن النهي للتحريم، لا سيما وقد أكد بنون التوكيد؛ لأن النون هنا للتوكيد، والدليل على التوكيد أن الفعل بني على الفتح.

والمعاونة للكفار تكون معاونة عسكرية، ومعاونة فكرية، ومعاونة مالية ومعنوية، فكل ما فيه معاونة الكفار ومساعدتهم وتقويتهم، فإنه محرم؛ لأن الواجب علينا -نحن المسلمين- العكس من ذلك، الواجب علينا إذلالهم، وخذلهم بكل ما نستطيع، بل قد قال الله للرسول -صلى الله عليه وسلم-: {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم} [التوبة: ٧٣]، وقال للمؤمنين: {يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين} [التوبة: ١٢٣]، وأن هذا من تقوى الله؛ إذا قاتلتموهم فليجدوا منكم الغلظة.
ومعنى هذا: أنا إذا لم نقاتلهم، ووجدوا منا اللين؛ فإن هذا مخالف للتقوى.

انتهى بحمد اللّٰه وفضله جمع بعض الفوائد
من تفسير سورة
(القصص)

نسأل اللّٰه تعالى أن يجعلها
نافعة لعباده مقربة لمرضاته
إنه وليّ ذلك والقادر عليه

تويتر
@fwayidd1